

دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية في تحصين الحدث من الانحراف

د. عماد بن تروش: جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف: الجزائر.

الملخص:

تلعب مؤسسات التنشئة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات دورا محوريا في بناء شخصية الحدث و نموها على نحو يجعله شخصا سويا في مجتمعه ملتزما بقواعد الضبط الاجتماعي و مقتضياته و ذلك من خلال مجموعة الأنساق القيمية والأخلاقية التي تسعى هذه المؤسسات إلى استئماجها في شخصية الطفل/الحدث و هي أنساق يعتمد عليها المجتمع و يرتضيها و هي أساس العلاقات الاجتماعية السوية و كذا النظام الاجتماعي القائم و كل ذلك بهدف حماية الحدث و تحصينه من كافة المثيرات الاجتماعية التي قد تكون دافعا لولوجه عالم الجريمة و الانحراف.

الكلمات المفتاحية: مؤسسات التنشئة الاجتماعية- التحصين- الحدث المنحرف

The role of social institutions in the protection of minors from delinquency

Abstract:

In any society, social institutions play a crucial role in building and shaping the character of the juvenile child in order to create a straight person committed to the rules of social laws and their requirements. Throughout seeking to integrate a set of ethical and moral values into the child's personality, these values are adopted and accepted by the society as a basis for creating straight social relationships and also an ordered social system. This is in order to protect minor and immunize children from all the social attractions that can lead them into the world of crime and delinquency.

Key words: social institutions - protection of minors - delinquency

مقدمة:

خلصت الأدبيات العلمية المتخصصة في شؤون التربية و علوم الإنسان إجمالا ، إلى أن الطفل لا يقوى على الحياة و العيش و لو لفترة محدودة دون مساعدة من الآخرين ، و هذا بخلاف الكائنات الأخرى التي تلد باستعدادات فطرية تحصنها من الاعتماد الكلي على مثيلاتها في مواكبة إيقاعات الحياة اليومية ، و على هذا النحو يمكن وصف الطفل الحديث العهد بالولادة ، بأنه كائن بيولوجي شبه عاجز يحتاج إلى آلية تحوله إلى كائن اجتماعي فعال له ذاتيته و ثقافته الخاصة ، و هذه الآلية هي ما اصطلح على تسميتها بالتنشئة الاجتماعية .

إن التنشئة الاجتماعية كإحدى صور العمليات الاجتماعية المهمة تسعى إلى تعليم الطفل / الحدث وإعداده بغية تيسير عملية اندماجه ضمن النسيج الاجتماعي القائم ، ومن تم توافقه مع مختلف الثقافات والاتجاهات و القيم و المعايير و الجماعات المشكلة جميعها للمشاهد الاجتماعي فيعني بذلك الحقوق و الواجبات

والأدوار الملزمة عليه اتجاه الأفراد و الجماعات التي ينتمي إليها ، و يتعاطى بقبول و تفهم مع أدوار الآخرين الذين يتعامل معهم في مختلف المواقف الاجتماعية ، و كل ذلك يدفعنا إلى القول أن الهدف الأساسي للتنشئة الاجتماعية هو تحقيق التكيف الاجتماعي للحدث و الذي يعد اللبنة الأساسية لتوطيد شبكة العلاقات الاجتماعية، وصمام أمان لحماية الجسد الاجتماعي من مظاهر الترهل و التمزق، و الذي من صورته ظاهرة انحراف الأحداث التي تعبر بصدق على اختلال و إفلاس كبير اعترى عملية تنشئة الحدث ، فتصبح النتيجة المنطقية المنتظرة، تمرده على قيم المجتمع والدوس عليها، وإلحاق الضرر بأفراده، و ذلك بممارسة سلوكات غير مقبولة اجتماعيا، وهذا ما أدى بالباحث إلى الاقتناع التام بأنه لا مناص من الحديث عن إصلاح الحدث بمراكز إعادة التربية - باعتبارها مؤسسة للتنشئة الاجتماعية - و مشكلاتها ، من دون أن يكون لدينا تصورا نظريا حول سبل التنشئة الاجتماعية السليمة و آليات تحقيقها مع التركيز على دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية في ترشيد و تهذيب سلوك الحدث باعتبارهم مؤسسات اجتماعية كفيلة بوقاية الحدث و تحصينه من ولوج عالم الجريمة و الانحراف، خاصة إذا تمت عملية التنشئة الاجتماعية فيها بشكل سوي لا يشوبها أية اختلالات أو انحرافات.

هذا و لقد رأينا في هذا المقال العلمي، أنه من المفيد جدا منهجيا و معرفيا، و قبل الخوض بالنقاش والتحليل في هذه المسألة التربوية، التعرض إلى بعض المفاهيم التي لها ارتباط عضوي و وظيفي بخطوط التحليل لهذه المساهمة العلمية، مستهدفين بشكل مركز فهم معانيها و تعقل محتواها الدلالي.

أولا: الحقول الدلالية للمفاهيم:

1. مفهوم الانحراف:

يعتقد علماء الاجتماع أن الانحراف في السلوك باعتباره ظاهرة اجتماعية هو وصف عام يطلق على كل سلوك لا يتسق مع القاعدة الأخلاقية أو الدينية أو الإنسانية، أو حتى في بعض الأحيان مع العرف العام للمجتمع، فهو على هذا النحو تجاوزا لقيم المجتمع، و إهمالا لقواعده، و تعدي على نمط الحياة الاجتماعية القائم. و هناك شبه إجماع بين علماء الاجتماع على أن السلوك الانحرافي يحدث في ظل اختلال النظام الاجتماعي، فهو ردّ فعل أو نتيجة لنظام اجتماعي غير سوي.

هذا و قد درج العديد من الباحثين الاجتماعيين على تقديم تعريفات مختلفة للانحراف، تجمع كلها على أنه سلوك غير مقبول اجتماعيا. و من بين هذه التعريفات، نجد تعريف الباحثة الاجتماعية الأمريكية «صوفيا روبيسون»، التي ترى بأن الانحراف «هو كل سلوك يعارض مصلحة الجماعة في زمان و مكان معينين، بصرف النظر عن كشف هوية الفاعل، و بصرف النظر عن تقديم الفاعل للمحاكمة»¹. وعليه فإن «روبيسون» ربطت مفهوم الانحراف بمصلحة الجماعة، فإذا كان السلوك لا يتلاءم، يتصادم مع مصلحة الجماعة و بالتالي مع المصلحة الاجتماعية ككل عدّ سلوكا منحرفا مخالفا للتوقعات و التصورات الاجتماعية المتفق عليها، فيقابل باستهجان و عدم القبول من قبل الجماعة، ويستوجب ردّ فعل لردعه و حماية هذه المصلحة من الإجهاز عليها.

أما «روبرت ميرتون» فيرى أن الانحراف باعتباره ظاهرة اجتماعية «هو مجموعة من السلوكات التي تهدد توازن النظام، أو بعبارة أخرى يصبح النظام الاجتماعي القائم مضطرب الوظائف»². و الحقيقة هي كذلك ذلك أن النسق الاجتماعي الذي يفرز نظام اجتماعي متكامل متوازن، قائم على أساس وحدات اجتماعية هي على قدر كبير من التوازن و الانسجام، هذا التوازن حدث نتيجة اتفاق و إجماع الوحدات الاجتماعية على قواعد وقيم، و معايير اجتماعية تعتبر المنطلق الأساسي في علاقاتها، و تفاعلاتها فيما بينها، ففعل الانحراف يأتي لينتهك هذه القيم والمعايير، و بالتالي يؤدي إلى اضطرابات في الوحدات الاجتماعية، و من تم في النظام الاجتماعي ككل. هذا و يمكن التعامل مع المصطلح الانحراف إجرائيًا، باعتباره ذلك السلوك الذي ينتهك القيم و المعايير الاجتماعية المتفق عليها في المجتمع الجزائري، والذي ينجم عن عدة عوامل مجتمعية، نفسية و ثقافية، واقتصادية.

2. الحدث:

تدل كلمة "حدث" في اللغة العربية إلى الشاب فتى في السن، و يقال رجل حدثٌ أي الشاب، و كل فتى من الناس أو الدواب أو الإبل يسمى حدثاً.³

أما الحدث عند الفقهاء فهو الناقص للطهارة الشرعية.⁴ انطلاقاً من هذه الدلالات اللغوية لمصطلح حدث يمكن تعريفه على أنه الشاب/الطفل الحديث العهد بالولادة.

أما علماء النفس الاجتماعي فلم يحددوا سناً معينة لعمر الحدث، ذلك أنهم لا ينظرون من الزاوية نفسها التي ينظر منها القانونيين إنما نظروا إلى الجانب العقلي و النفسي، واعتبروا الفرد حدثاً حتى يتم له النضج المرتقب في ذلك الجانب، و تتكامل لديه عناصر الرشد، فالأمر عندهم يتعلق بطابع تلك الفترة من حياة الفرد، و ما تتميز به من خصائص وصفات، و ما يعوزها من حاجات، فمتى كان طفل مفتقراً بعد إلى عناصر الرشد التي تؤدي به إلى النضج المطلوب، فإنه يسمى حدثاً، فإذا ما تكامل نموه و بلغ الرشد أعتبر فرداً ناضجاً بالغاً.

و على ذلك يعرف الحدث في المفهوم النفسي الاجتماعي "بأنه الصغير منذ ولادته، و حتى يتم نضوجه الاجتماعي و النفسي، و تتكامل لديه عناصر الرشد المتمثلة في الإدراك، أي القدرة على فهم ماهية و طبيعة فعله و تقدير نتائجه، مع توافر الإرادة لديه على توجيه نفسه إلى فعل معين أو الامتناع عنه.⁵

و تتمثل عناصر الرشد، في الإدراك التام، أي معرفة الفرد لصفة عمله، و طبيعته، و القدرة على تكييف سلوكه و تصرفاته طبقاً لما يحيط به من ظروف الواقع المجتمعي و متطلباته.

3. مفهوم التنشئة الاجتماعية:

يعرف تالكوت بارسونز التنشئة الاجتماعية بأنها عملية تعليم تعتمد على التلقين و المحاكاة والتوحد مع الأنماط العقلية و العاطفية و الأخلاقية عند الطفل و الراشد وهي عملية تهدف إلى إدماج عناصر الثقافة في نسق الشخصية و هي عملية مستمرة لا نهاية لها⁶.

في حين نجد أن الباحث مصباح عامر يعرفها بأنها "عملية اجتماعية يتم من خلالها بناء الطفل بناءا اجتماعيا ، عبر عمليات التشكيل التي يتلقاها من مختلف المؤسسات الاجتماعية التي تحتضنه ، ومن المحيط الذي ينبثق منه عن طريق التفاعل الاجتماعي و يتم خلال هذه لعملية نقل قيم و ثقافة وطرق حياة المجتمع"⁷. و يضيف بياجي أن التنشئة الاجتماعية للطفل لا تهدف بالضرورة إلى فرض احترام صارم ، أعمى لقيم و المعايير الاجتماعية و إنما - و هو الأساس - تسمو إلى ولوج مرحلة إقتناع الطفل بتلك القيم و تقبلها إراديا و التصرف من خلالها و بمقتضاها بحيث تصبح بمثابة عقد حقيقي يتضمن القبول المتبادل لمجموعة من الأنساق القيمية و المعايير و الاتجاهات الاجتماعية بين الطفل من جهة والقائمين على عملية تنشئته من جهة أخرى، سواءا أفرادا أو مؤسسات اجتماعية⁸.

أن المتأمل للمحتوى الدلالي لمصطلح التنشئة الاجتماعية يخلص إلى مجموعة من الاستنتاجات يستنبطها من التعاريف التي تم عرضها و تحليلها ، لعل أولها أن التنشئة الاجتماعية كعملية تلقين وتعليم و محاكاة تكشف ضمنا بأن الطفل مزود باستعدادات فطرية للنمو و التطور و النضج في جميع نواحي الشخصية ، و لا يتم هذا النمو إلا إذا تم تزويد هذه الاستعدادات و صقلها بمنظومة متكاملة من القيم و المعايير و الاتجاهات و أنماط السلوك و البناء الثقافي و الحضاري المشكل للوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الطفل ، و هذا ما يحقق هدف آخر مهم قد نعتبره بمثابة نتيجة أخرى من نتائج القراءة التحليلية لمصطلح التنشئة الاجتماعية، ألا و هو التكيف الاجتماعي الذي يقوم بالأساس على التفاعل الاجتماعي البناء بين المصدر و المتلقي⁹، والذي يؤدي إلى إنتاج جيل من الشباب المحصن اجتماعيا من جميع المثيرات التي قد تؤدي إلى تمزيق شبكة العلاقات الاجتماعية، وإرباك النظام الاجتماعي القائم، و الذي من صورته ظاهرة انحراف الأحداث، و التي تعبر بشكل واضح لا لبس فيه - و كما سبقت الإشارة إليه - عن خلل و إخفاق كبير للتنشئة الاجتماعية في تشكيل الشخصية السوية للحدث.

هذا و بعد عرضنا لأهم المفاهيم المرتبطة دلاليا بخطوط التحليل التي تستهدفها هذه المساهمة، من خلال إمطة اللثام عن دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية في تربية الحدث التربوية السوية الكفيلة بحمايته و تحصينه من كافة المثيرات التي قد تجتذبه إلى عالم الجريمة و الانحراف و هو ما سيتم مناقشته فيما يلي:

ثانيا: مؤسسات التنشئة الاجتماعية و دورها في حماية الحدث من الانحراف

1. مؤسسة الأسرة و دورها الأساسي في البناء السليم لشخصية الحدث:

يقول رسول الله "صلى الله عليه وسلم": " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة جماعها تحسون فيها من جدعاء؟" ¹⁰ رواه أبي هريرة.

انطلاقاً من هذا الحديث الشريف يمكن القول أن الأسرة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى المسؤولة على عملية التنشئة الاجتماعية، فهي بمثابة اتحاد تلقائي يتم نتيجة الاستعدادات والقدرات الكامنة في الطبيعة البشرية التي تنزع إلى الاجتماع. وهي الضامن الوحيد لبقاء الجنس البشري واستمرار الوجود الاجتماعي ¹¹. قال تعالى: « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ¹² » وقال أيضا « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينهم مودة ورحمة ¹³ ».

وتلعب الأسرة دورا بارزا في تشكيل سلوك الفرد سواء بطريقة سوية أو غير سوية، ومن خلال النماذج السلوكية التي تسوقها للطفل، فأنماط السلوك والتفاعلات التي تدور داخل الأسرة هي النماذج التي تؤثر سلبا أو إيجابا في تربية الطفل وتشكيل شخصيته حتى في المراحل المتقدمة من النمو ¹⁴. لذلك خلص الكثير من الباحثين المشتغلين في حقل التربية بصفة عامة، والتنشئة الاجتماعية بصفة خاصة، إلى أن للخبرات التي يخبرها الطفل في محيط أسرته وخاصة في السنوات الأولى لطفولته أثرا كبيرا على مستقبل حياته وقدرته على إحداث التوافق المطلوب. وفي هذا السياق يحرص أغلب المفكرين على التأكيد على أن مجمل القيم والاتجاهات والمعايير التي يتلقاها الحدث في بيئته الأسرية تعد بمثابة المرجعية التي يترجم على ضوءها الخبرات الجديدة، ولا يُنكرُ في الوقت ذاته أن الخبرات الأولى التي يتلقاها الطفل في أسرته وهي تصطدم بالخبرات الجديدة التي يتلقاها خارج الأسرة قد يمسه التغيير والتعدل، ولكنها في أغلب الأحيان تقف بعناد إزاء هذا التغيير وما تفرضه الخبرات الجديدة من معنى.

ولما كانت الأسرة هي الجماعة الأولى التي يجد الطفل نفسه فيها عند ولادته، فلا مناص من القول إنها المدرسة الأولى أيضا التي تلقن الطفل كافة المعارف والمهارات والاتجاهات والقيم السائدة في المجتمع بعد أن تترجمها إلى أساليب عملية لتنشئته نشأة اجتماعية متوافقة مع الخصوصية الثقافية للمجتمع من جهة ومع ما يناسب متطلبات الأسرة ووسطها الاجتماعي الخاص من جهة أخرى، بالإضافة إلى أنها تكسبه من المعارف والمهارات ما ييسر له تصريف شؤون حياته الخاصة والعامة، لذلك فقد كان إجماع الباحثين في مجالات التنشئة الاجتماعية مع اختلاف أطرها النظرية، على أن الخبرات الأسرية لاسيما في مرحلة الطفولة المبكرة تلعب دورا بارزا ومحوريا في بناء شخصية الطفل وفي نموه النفسي والاجتماعي ¹⁵.

إن الحديث عن بناء شخصية الطفل وعن نموه النفسي والاجتماعي يثير لدينا كباحثين تساؤلا مشروعا عن طبيعة المناخ الاجتماعي الأسري الملائم لتحقيق تنشئة اجتماعية سليمة للطفل كفيلة بتحصين الطفل/الحدث من الانحراف؟. وعليه فهناك إجماع بين مختلف المفكرين على أن الأسرة التي توفر الجو الهادئ المليء بالحب

والحنان والطمأنينة والود والتفاهم القائمين على الثقة والتقدير والمحبة، والتي تحتفظ بتوازن جيد بين الحرية والقيّد¹⁶، وتجتهد قدر الإمكان على تنمية الذكاء العاطفي لأبنائها الذي يمكن الطفل من ادراك، تأويل وتعديل انفعالاته، والتعبير عنها بطريقة فعالة تمكنه من التواصل مع الآخرين في معظم الوضعيات التي يوجد ضمن إطارها¹⁷ وتعمل على تدريبه على احترام نفسه وتساعد على أن يكون محترماً بين أفراد مجتمعه، وتوحي إليه بالثقة اللازمة لنموه، هي الأسرة التي تنجح في خلق مناخ اجتماعي وجو ديمقراطي ملائماً لنمو الطفل نمواً سليماً، وتطوره في إطار مجتمع سوي يعده إعداداً صالحاً للمجتمع الكبير الذي يتفاعل معه في رشده وشيخوخته، وبذلك يتحقق الاندماج والتكيف الاجتماعي المرغوب فيه¹⁸.

وتدعيماً لهذا الطرح فقد أشارت نتائج دراسات عديدة - ونخص بالذكر الدراسة التي أجراها الباحث حيدر إلى أن الجو العاطفي للأسرة يعتبر من أهم العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الطفل وأساليب تكيفه، فالحب والعاطفة الصادقة التي يمكن أن ينعم بها الطفل حسب الباحث، تعزز ثقته بنفسه وطمأنينته وتكيف شخصيته وتمكنه من مجابهة الظروف الصعبة والجيدة على نحو سواء، والأهم من ذلك أنها تحصنه من جميع المثيرات التي قد تجذبه إلى عالم الجريمة والانحراف¹⁹. كما بينت دراسة أخرى أن النمط الديمقراطي في التنشئة الأسرية يؤدي إلى زيادة الانضباط لدى الطفل بحيث يصبح أقل اعتداءً على الغير وأكثر مواظبة وأكثر اعتماداً على النفس وتحلياً بروح المبادرة وأكثر إبداعاً²⁰ وبناءاً عليه يمكن القول أن بناء شخصية سوية للطفل لا يتأتى إلا في جو أسري تشيع فيه الثقة والوفاء والحب والتآلف بين أفرادها، وعلى نقيض من ذلك فإن الأسرة التي تروج لثقافة الانتقام والكره والغيظ والعداء بين أبنائها الأحداث، هي التي تكون مسؤولة عن إنتاج قوافل من الأحداث المنحرفين والجانحين، فمن نشأ في بيئة أسرية عدائية لا يمكن أن يبني صداقات مع الآخرين أو حتى يؤمن بها، ومن حُرِمَ المتعة والحرية في طفولته أخذ يخلّسها أو يتحايل على الظفر بها في شبابه، ومن شب على الهرب من المشكلات والصعوبات استقبل عهد الرجولة خائفاً خائفاً²¹.

وضمن هذا الإطار خلصا الباحثان "ألين ومايكل" إلى نتيجة هامة من دراسة أجروها على مجموعة من الأحداث، أن الأطفال المنحرفين، العدوانيين والمضطربين انفعالياً والمتأخرين دراسياً قد تعرضوا للقسوة والنبذ من الوالدين، وأن 80 إلى 90 % من الأحداث المنحرفين كانوا في طفولتهم ضحايا سوء معاملة الوالدين والنبذ والتسلط الذي عاشوه في طفولتهم، لذلك يعتقد الباحث "راجيل" إن أساليب التنشئة الاجتماعية الخاطئة أو غير السوية تحدد عدد الجانحين والمنحرفين الفعليين في أي مجتمع من المجتمعات²².

إن ما يجب الإلماع إليه في ختام حديثنا عن دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية للطفل -وكخلاصة عامة- هو أن أساليب التنشئة الاجتماعية السوية للأسرة -والتي سبقت استعراضها- كفيلة بمساعدة الطفل / الحدث على تحقيق أهدافه الاجتماعية، وممارسة أدواره المنوطة له، وتحمل مسؤولياته، والأهم من ذلك إثبات وجوده في النسيج الاجتماعي والمجتمع المحلي، لأنه ومن خلال الأسرة يكتسب الطفل / الحدث رباطه

الاجتماعي بمجتمعه، ورباطه الثقافي بثقافة مجتمعه، ورباطه الأسري بأسرته و هذا كله و بإجماع أغلب الباحثين كفيل بتحسين الحدث من ولوج عالم الجريمة و الانحراف.

2. الرسالة التربوية للمدرسة و دورها في التنشئة الاجتماعية السليمة للحدث و في تحصيله من الانحراف:

تعد المدرسة إحدى المؤسسات الاجتماعية التي اتفق على إنشائها بقصد المحافظة على ثقافة المجتمع ونقلها من جيل إلى آخر، أي أنها تقوم بتوفير فرص النمو المناسبة، وهي بهذه الصورة تعتبر من أنشطة عوامل التأثير الاجتماعي التي غالبا ما تبدأ التنشئة فيها للتلميذ / الحدث بعد سن السادسة أو بتحديد أدق تبدأ بعد تنشئته الأسرية²³ كما أوضحت المدرسة كذلك مؤسسة لتلقي تربية تحترم كرامة الطفل. كإنسان، وتساعد على تطوره، ونموه الجسدي والعقلي وتقل ذكاؤه، وتمكنه من الوصول إلى المعارف والثقافة المجتمعية²⁴ فلم تعد تبعا لذلك المكان الذي يتم فيه تجميع التلاميذ لتلقيهم بعض الدروس والمعارف فحسب، بل إلى جانب ذلك أصبحت المدرسة - ومواكبة منها لتطور الحياة الاجتماعية الحديثة - مؤسسة اجتماعية قائمة بذاتها تعنى بتنمية الجوانب الاجتماعية والنفسية والعلمية للتلاميذ ليكونوا أقدر على مواجهة متطلبات الحياة الاجتماعية المتغيرة. وبناء عليه فقد أصبحت شريكا للأسرة وللمؤسسات اجتماعية أخرى في تحمل مسؤولية التنشئة الاجتماعية للطفل، وتلعب دورا محوريا في تهيئته للتفاعل مع الحياة الاجتماعية بشكل يضمن انسجامه كليا مع القيم والمعايير السائدة في المجتمع، ومن ثم لا مناص من القول أن المدرسة تضطلع بوظيفة التربية ونقل الثقافة الجماهيرية، وتوفير المناخ الاجتماعي الملائم لنمو التلميذ/ الطفل وتنمية مداركه وصل مواهبه وملكاته، فضلا عن تعليمه أدوارا اجتماعية جديدة وبيان حقوقه وواجباته، وإيجاد التوازن الملائم بين حاجاته الخاصة وحاجات الغير.

ومن المفيد جدا القول في هذا المقام وضمن هذا السياق المعرفي، أن الطفل لا يدخل المدرسة وهو أعزل أو عنصرا خاملا، مادة خام ، بل يكون متشعبا، حاملا قيما ومعايير اجتماعية، فتكون المدرسة في هذا الإطار بمثابة فضاء اجتماعيا ملائما لتوسيع دائرته الاجتماعية، حيث تتيح له الفرصة للاندماج في جماعات جديدة، من الرفاق يكتسب من خلالهم المزيد من المعايير الاجتماعية بشكل منظم، ويتعلم أدوارا اجتماعية جديدة حيث يتعلم حقوقه وواجباته وأساليب ضبط انفعالاته، ويتمرس على التعاون والانضباط في السلوك فضلا عن تأثره بالمنهج الدراسي²⁵ الذي يعمل على توسيع مدار ذكائه وينمي شخصيته التربوية.

ولا يمكن أن نغفل حقيقة أخرى هي أنه في المدرسة يتعاطى الطفل مع مدرسيه كقيادات ونماذج مثالية خاصة إذا كان المدرس على درجة عالية من الأخلاق والرزانة وسعة المعرفة والعلم، فيتأثر الطفل به ويحمل على محاكاته واعتباره قدوته في الحياة الاجتماعية، فيزداد تبعا لذلك علما وثقافة وتنمو شخصيته من كافة النواحي²⁶.

واستكمالاً للرسالة الأخلاقية والتربوية التي تضطلع المدرسة بمسؤولية تسويقها لدى الأطفال/ الأحداث بهدف مواصلة عملية تكييفهم مع النسق القيمي الذي يعتمده المجتمع، فقد تكفلت المدرسة - بالإضافة إلى تنمية وتطوير المعارف، والمهارات، والرفع من الرصيد العلمي والمعرفي لدى التلاميذ- بعملية استدماج القيم الأخلاقية لدى التلميذ وذلك بهدف التأثير في سلوكه ونمط تفكيره تأثيراً إيجابياً يتوق إلى تشكيل سلوك ملتزماً ومنصفاً نحو إنجاز ما يريده المجتمع وما يثمنه الآخرون، لاسيما أولئك الذين يلزمون الطفل/ الحدث ويتفاعلون معه.

إن أهم قيم أخلاقية يمكن للمدرسة أن تنشئ التلميذ عليها، هي التي تتعلق بقيم التعاون والثقة العالية بالنفس، والصبر والصراحة والنقد الذاتي والعدالة والتفائل والعفة والأمانة والصدق، كما تكافح المدرسة من خلال هيئاتها التعليمية القيم السلبية والأفكار والتحيز والعنصرية والتخنت... الخ.

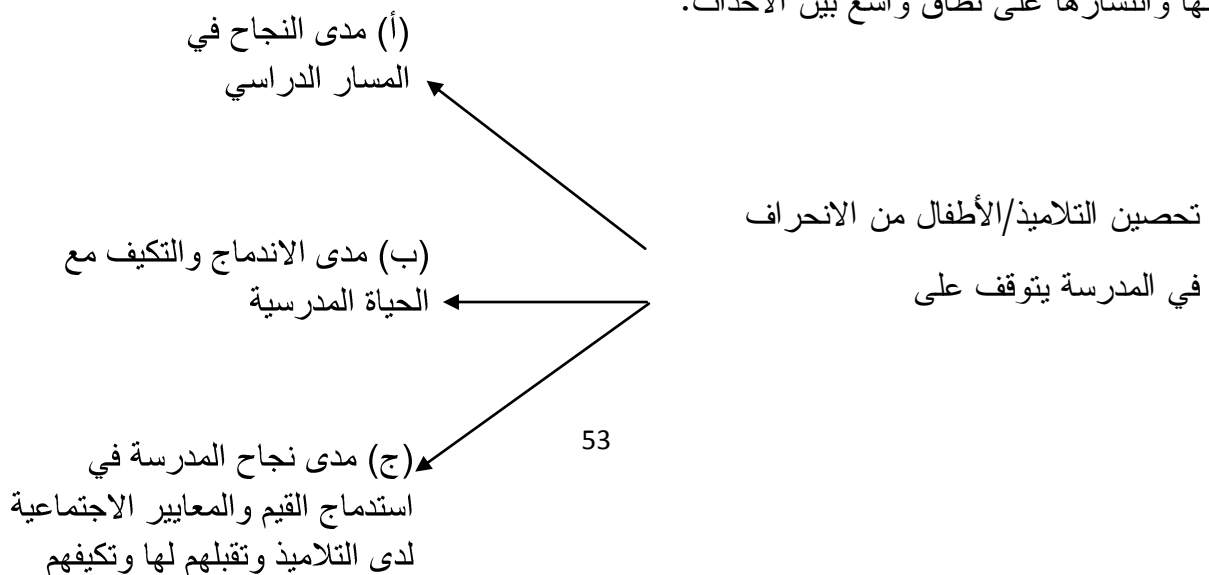
وإذ ما أفلحت المدرسة في استدماج القيم السامية لدى التلاميذ من جهة ونجحت كذلك في تحصينهم من جميع الأفكار والاتجاهات السلبية من جهة أخرى، فإنها بذلك تكون قد ساهمت مساهمة فعالة في إنتاج قوافل من الشباب الواعي، المثقف، المتخلق، والمشارك بفعالية في عملية التغيير الاجتماعي الهادف²⁷ الذي ينشده كل مجتمع يريد أن يتموقع في مصف المجتمعات التاريخية^(*)، وهذا لعمرى أحد الأهداف الأساسية لعملية التنشئة الاجتماعية الهادفة.

انطلاقاً من هذه القراءة التحليلية لدور المدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية للتلاميذ/الأحداث نخلص إلى القول أن هذه المؤسسة الاجتماعية أضحت تتحمل مسؤولية كبيرة لا تقل عن مسؤولية الأسرة في عملية إنضاج الجوانب النفسية والوجدانية والعقلية للأفراد، وفي استدماج القيم والمعايير والاتجاهات التي يرتضيها المجتمع في شخصيتهم، فضلاً عن صقل مواهبهم، وتنمية ملاكاتهم وإبداعاتهم، إنها بعبارة أخرى تضطلع بمسؤولية أسنة الطفل، وتنمية الأفكار الحية، البناءة، الطموحة، الهادفة، وتحصينه من كل المثيرات الفاسدة، والهدامة، والأفكار الميتة أو المميتة التي قد تجتذبه إلى عالم الرذيلة والإجرام. غير أن هذه الوظيفة التربوية النبيلة التي أضحت تضطلع بها المدرسة في المجتمعات الحديثة لا يمكن أن تحجب عنا حقيقة أخرى كون المدرسة قد تكون بيئة ملائمة لإنتاج زمر من المنحرفين العابثين بالنسق القيمي والاجتماعي الذي يعتمده المجتمع، فكيف ذلك؟

وفي الإطار يعتقد الباحث "ميشال بورن Michel Born" أن الحياة المدرسية المضطربة التي يعيش في ظلها التلميذ/الحدث في مؤسسة التربوية قد تعرقل عملية التنشئة الاجتماعية، وتتحرف بها عن مسارها السليم، فإذا أخفقت المدرسة في تحقيق التكيف المطلوب للتلميذ مع طبيعة الممارسة التربوية في مدرسته، ونقصد بذلك تكيفه مع القوانين واللوائح وطبيعة الجزاءات فيها، وإذا كانت طبيعة العلاقة بين الأستاذ والتلميذ تقوم على الصراع والعنف المتبادل والنفور - كما تطلعنا به التقارير اليومية عن مدارسنا- والاستبداد بالرأي وتغيب كل

فرص التفاعل الإيجابي وقطع الطريق أمام كل المبادرات الرامية لإحلال جو ديمقراطي بين التلاميذ، ومختلف أطراف العملية التربوية في المدرسة، فضلا عن صعوبة وتعقد البرامج والمناهج الدراسية بحيث لا تتناسب والقدرات التحليلية للتلاميذ، ولا تراعي مبدأ الفروق الفردية، وبالمقابل لا توجد أي اجتهادات من طرف الأساتذة لتبسيطها وتذليل صعوباتها حتى تصبح في متناول الجميع، كما أن انتهاج الإدارة المدرسية للنمط التسلسلي الديكتاتوري في التعامل مع التلاميذ وغلق الباب أمام كل حوار صريح وبناء يقوم على الاحترام المتبادل والاتفاق على إنجاز العملية التربوية، من شأن كل هذه الظروف والعوامل إذكاء مشاعر العدا والكرهية لدى التلاميذ لمدرستهم ومن ثم تفويت فرص الاندماج الاجتماعي، وتقبل النسق القيمي للمجتمع²⁸

وعليه لنقادي كل الإنزلاقات التي تعصف بالرسالة التربوية والتعليمية للمدرسة لا مناص من التشديد على ضرورة بذل الجهود اللازمة في سبيل ترسيخ القيم الاجتماعية المثالية لدى التلاميذ، ونقل التراث الثقافي والحضاري - بعد تنقيته وتبسيطه- بكل أمانة للأجيال القادمة، مع التركيز على تفعيل دور المدرس الذي يجتمع مختلف الباحثين والمهتمين بالدور التربوي للمدرسة على أنه يلعب دور محوريا في بناء شخصية التلاميذ، ورسم ملامحها من خلال جعل نفسه نموذجا مثاليا للأخلاق، والعلم ورجاحة العقل واتزان الشخصية ليكون قدوة حسنة، ونموذجا رائعا للشخصية السليمة المتوازنة فيثأثر التلميذ /الطفل بها ويعمل على محاكاتها وتقمص أدوارها²⁹ وفي هذا الصدد يقول الباحث بلقاسم محمد الغالي " ويعتبر المعلم أحد رواد غرس القيم، وقد يصل إلى مقاصده من خلال المناهج والأساليب المتنوعة التي تتاح له، فهو القدوة التي يتأثر بها الطفل في المدرسة، وهو النبراس الذي يضيء المنهج ويسلط الأضواء على القيم التي يريد غرسها أو تعزيزها أو حذفها إن كانت سالبة"³⁰. ولا يمكن أن نحقق إقلاع حضاري وفكري، ونماء اقتصادي من دون أن تكون لدينا منظومة تربوية قوية تنتج شبابا قادرا على تحقيق التغيير الاجتماعي المنشود، وإذا أخفقت المدرسة في ذلك وفشلت في تنشئة الطفل تنشئة سليمة فسينخر جسد المجتمع الجهل والتخلف والتمزق . كما تتهاور الأنساق القيمية، وتنتشر تبعا لذلك الأزمات الأخلاقية التي من صورها انحراف الأحداث التي تعد من أعقد الظواهر الاجتماعية التي تؤثر على وجود أزمة قيمية تستدعي البحث في أسبابها، وتعقل العوامل والظروف المجتمعية التي ساعدت على تغذيتها وانتشارها على نطاق واسع بين الأحداث.



شكل يوضح شروط تحصين التلاميذ من الانحراف في المدرسة.

3. مؤسسة المسجد و دورها في تنشئة الحدث على الالتزام و الانضباط الأخلاقي و الاجتماعي:

وظيفة المسجد في التنشئة الاجتماعية أعظم من أن تحدد في أي إطار كان فهي تساوي في حجمها وظائف منظمات المجتمع الأساسية بأجمعها، فقد كان للمسجد ومازال مكانة عظمى ودور نشط خلاق في صياغة الفرد المسلم على كل المستويات الدينية والخلقية والروحية، وكانت فيه الحل والعقد وفيه المدرسة والجامعة، فكان فكرا وروحا قبل أن يكون مبنى وشكلا، وكان قلب المجتمع الإسلامي النابض، والمصنع الذي يصقل ويصوغ الفرد والجماعة على الأسس الإسلامية الصحيحة، مواصلا رسالته العالمية أبدا في تنمية الوازع الديني والروح الإسلامية الصحيحة وتنقية النفس وصقل العقل وتدريب الإنسان على الخضوع والاستسلام لله والاعتصام به وحده دون غيره، والمسجد عبر تاريخه لم يكن أبدا مجرد مصلى فقط، بل هو جزء لا يتجزأ من بناء الشخصية الإسلامية، فكما كان الإنسان لا يستطيع أن يتصور إسلاما بغير إسلاميين، فكذلك لا يمكن أن نبني شخصية المسلم بدون مسجد يؤدي لها الوظائف الدينية والسياسية والاجتماعية³¹.

إجمالا لقد أضحى المسجد مؤسسة اجتماعية قائمة بذاتها يعنى بعملية التنشئة الاجتماعية، ولا شك أن له أساليبه الخاصة في هذه العملية، وهي من دون شك مستمدة أساسا من مبادئ الدين الإسلامي، وعليه سنحاول فيما يلي تسليط الضوء على أهم الأساليب المتبعة في التنشئة الاجتماعية داخل المسجد.

➤ الصلاة وصلاة الجماعة :

من الأمور المتفق عليها أن الفرد لكي يحيا حياة سوية في المجتمع يحتاج إلى حاجزا أدبيا يصده عن نزعتة الوحشية، ويباعد بينه وبين طبيعته الحيوانية، ولعلّ الصلاة هي العامل الأساسي في ذلك، لأنها تدفع الفرد إلى التجرد من جميع السلوكات الدنيئة وتغرس فيه الأخلاق الربانية في أسمى وأروع ما يتخيله العقل البشري من نزاهة وسمو الخلق. أما من الجانب النفسي فقد أثبتت الدراسات والأبحاث أن ضعف الاتصال بين الروح وخالقها قد تؤدي إلى عوارض القلق والاكتئاب بسبب ما يلاقيه الفرد من مصائب هائلة يحاول التغلب عليها بسلوكات انحرافية تكون بمثابة المتنفس الوحيد لذاته مثل تعاطي المخدرات، الخمر، الاعتداءات الجنسية إلخ.

بينما تتيح الصلاة للفرد اللجوء إلى ربه في كل الحالات سواء العصبية أو السعيدة فضلا على أنها فرصة لمساءلة الله بكل ما يريده، وهذا فيه دعما معنويا كبيرا يعزز القيم الأخلاقية والمبادئ السامية لدى الفرد والتي تعد أساس الدين الإسلامي الحنيف.

كما أن الصلاة تنمي في ذات الإنسان عقيدة إطاعة أوامر الله الخيرة، كالصبر والثبات، كما تدعو إلى الرجوع والتقرب من الله عند تعاقب المحن لتستمد منه القوة وحسن التصرف لمواجهة أعباء الحياة بكل حكمة وتبصر، فتشعر نفس الفرد بنفحة مشجعة، وطمأنينة شاملة تساعد على توجيه سلوكه وفق ما يرضاه الله عز وجل³².

كما أن الصلاة بما تفرضه على الفرد من خشوع، فهي تنمي ملكة حصر الذهن لدى الفرد والتي من نتائجها نجاحه واستقراره في الحياة الاجتماعية لقوله تعالى "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون"³³. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن الباحث النفساني "وليام مولتون ماستن" وفي سياق توضيحه لملكة حصر الذهن أكد على أن القدرة على تركيز الخواطر تجري مجرى العادة عند كل رجل بارز وكل باب من أبواب الحياة، ففي أية لحظة يركز الزعيم أو الرجل الفائق في أمرها خواطره كلها في العمل المفرد الذي يكون عليه أن ينهض به، وأكثرنا تنقصه هذه القدرة على التركيز يحيره ويفسد عليه أمر الاضطراب والشواغل والأهواء المتعارضة "ويضيف" وعقل الفرد يصبح أداة مدهشة إذا ركز تركيزاً قوياً حاداً ". أما وليام جيمس فيقول في نفس الاتجاه "أن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديين ليس مرجعه إلى صفة أو موهبة فطرية للعقل بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها همهم، وإلى درجة التركيز التي يسعهم أن يبلغوها". وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن الصلاة هي أداة لتنمية ملكة حصر الذهن في الإنسان، فالمصلي الذي بإمكانه أن يضبط ويحصر فكره طيلة فترة الصلاة فبلا شك تنمو لديه ملكة حصر الذهن التي تصبح أكبر معين له في مواجهة شتى المواضيع المطروحة أمامه وسائر الأعمال التي يقوم بها³⁴. هذا عن الصلاة بوجه عام، أما عن صلاة الجماعة فهي تلعب دوراً كبيراً في غرس المبادئ الأخلاقية السامية لدى الفرد، وخصوصاً صلاة الجمعة والعيدين التي يجتمع فيهما عدد كبير من المصلين، وتتضمن كل صلاة منها خطبة يلقيها الإمام يحث فيها المصلين باتيان الصفات الخيرة التي ترضي الخالق وينهاهم عن الصفات المشينة التي تغضب الله عز وجل وكل ذلك له أثر بالغ في تربية وتنشئة الإنسان المسلم الصالح.

كما أن الصلاة الجماعة أداة لهدم الفوارق الاجتماعية، فيصلي الغني إلى جانب الفقير والحاكم إلى جانب المحكوم، بالإضافة إلى أنها وسيلة للتعارف بين المؤمنين، وإزالة الأحقاد من قلوبهم وغرس المحبة والتعاون والإخاء بينهم³⁵. وهذا ما يشكل الهدف الرئيسي للتنشئة الاجتماعية.

➤ الموعظة والنصح :

إن للموعظة والنصيحة أثر كبير في مخاطبة النفس، وتبصر الطفل بعيوبه وتوجيهه إلى الطريق القويم وتحليه بمكارم الأخلاق، ولنا في القرآن الكريم خير دليل وموجه في استعمال هذا الأسلوب، حيث خاطب النفس

البشرية مرات عديدة وكثيرة بهذا الأسلوب، حيث يقول تعالى في سورة لقمان : " وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بني لا تشرك بالله وإن الشرك لظلم عظيم"³⁶.

ولقد بين القرآن الأساليب المثلى في وعظ الفرد، ويمكن إيجازها فيما يلي :

1- النداء الإقناعي المصحوب بالاستعطاف والاستتكار، لما له من تأثير على مشاعر وقلوب الناس مهما اختلفت طبقاتهم وجنسياتهم.

2- الأسلوب القصصي المصحوب بالعبارة والموعظة.

3- التوجيه المصحوب بالوصايا والمواظ³⁷.

وهي أساليب يمكن الوقوف عليها في الدروس والحلقات والخطب التي تتم في المسجد والتي نعتقد أنها ساهمت وتسهم وستسهم في عملية تشكيل الشخصية الإسلامية، ومن ثم فلا خلاف بأن للموعظة والنصح أهدافا تنشئية يمكن حصرها إجمالاً في النقاط التالية :

➤ أن يكون الله مصدر السلوك، بمعنى إيمان الفرد به والالتزام بعقيدته وذلك هو محدد سلوكه وهو الهدف والغاية لتصرفاته، أي أن يكون مخلصاً لله وذلك عن طريق عدم الإشراك به، والشكر له، والسكر للوالدين والشكر لصاحب النعمة.

➤ أن يكون السلوك كما حددته الموعظة غاية في الاعتدال في كل شيء فلا مغالاة ولا تفريط وإنما التوسط، وهذا يعكس هدف التربية الإسلامية في تنشئة الحدث المسلم على الاعتدال في السلوك والاعتدال في العقيدة³⁸.

➤ التقوى : وتهدف أيضا الموعظة والنصح إلى تربية المسلم على تقوى الله، والتقوى كما عرفها العلماء هي : "أن لا يراك الله حيث نهاك وأن يجذك حيث أمرك" أو هي " انقاء عذاب الله سبحانه بصالح العمل والخشية من الله تعالى في السر والعلن"³⁹. وتقوى الله هي منبع الفضائل الاجتماعية برمتها والطريق الأمثل في تجنب المفسدات والشرور والآثام بل هي الوسيلة الأولى التي توجد في الفرد وعيه الكامل لمجتمعه⁴⁰.

➤ الرحمة : كما تهدف الموعظة أيضا إلى بث الرحمة بين المسلمين وضرورة الالتزام بها في مختلف المعاملات التي يقوم بها الفرد والرحمة هي رقة في القلب وحساسية في الضمير، وإرهاق في الشعور تستهدف الرأفة بالآخرين، وهي التي تهيب بالمؤمن أن ينفر من الإيذاء والانحراف ويصبح الفرد وقتها مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين⁴¹.

➤ الترهيب والترغيب :

يعد مبدأي الترهيب والترغيب أسلوبين مهمين في عملية التنشئة الاجتماعية، نظرا لأثرها البالغ في توجيه سلوك الأفراد نحو الأفضل والأسلم للفرد والمجتمع ونذب الأنماط السلوكية غير السوية⁴²، ويهدف هذا الأسلوب إلى ترغيب الفرد في بعض المبادئ السامية التي تؤدي إلى نتائج مرضية تنال رضي الله والعبء

والمجتمع ككل. أما التهريب فيهدف إلى تخويف الإنسان من الانغماس في بعض السلوكات المنافية للقيم والمبادئ التي أسس عليها الإسلام والأعراف والمبادئ التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية، والتي قد ينجم عنها نتائج وخيمة على الفرد، ينال منها غضب الله عز وجل، والطرد من رحمته، لذلك فإن هذا الأسلوب يسعى إلى توجيه الإنسان أكثر فأكثر للخير والصلح والاستقامة، ويبعده قدر الإمكان عن الشر والظلم والانحراف.

عموما وانطلاقا مما سبق عرضه ومناقشته يمكن القول أن أساليب التنشئة الاجتماعية للمسجد يمكن أن تحدث الأثر التقويمي المنشود في السلوكات الانحرافية للأحداث بمراكز إعادة التربية، ولا يتأتى ذلك إلا بانتداب إماما أو واعظا دينيا يتكفل بمهمة إلقاء دروس ومحاضرات عامة تدور مواضيعها حول العقيدة، وما تتضمنه من تعاليم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، بالإضافة إلى حث الأحداث على إقامة الفرائض وخاصة الصلاة والصوم لدورهما في تنمية الجوانب الروحية لدى المنحرف، فتستقر في نفسه فكرة الخير وتتصرف عنه فكرة الشر والأذى والإجرام.

في الحقيقة إلى اللجوء إلى المواعظ الدينية التي يتكفل بها الإمام أو الواعظ الديني في رعاية الأحداث أمرا في غاية الأهمية، ذلك أن الدين وبما يتمتع به من وقار واحترام شديدين من طرف جميع البشر، له أثر قوي في نفسية الحدث، خاصة بما يتضمنه من قواعد الأخلاق والحث على السلوك القويم الذي دعا إليه الله عز وجل، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم⁴³، إن الدين وخاصة الإسلام يحمل رسالة أخلاقية تخاطب الفطرة الإنسانية، وتهدف إلى تقوية الجوانب الأخلاقية والروحية في الإنسان، ومن ثم تدعيم الأنا الأعلى للفرد - بحسب لغة علماء النفس -، وهذا يحفظ للسلوك سلامته وانضباطه، ويجنبه الميل أو العودة إلى الضلالة التي من أشكالها الانحراف والجريمة، وبناء عليه أضحت وظيفة الواعظ الديني أكثر ضرورة نظرا لفعاليتها في تقويم السلوك، ومن ثم لا يمكن لأي تربية سليمة للأحداث الاستغناء عن هذه الوظيفة النبيلة أو التشكيك في فعاليتها.

4. الإعلام وكيفية مساهمته في تهذيب سلوك الحدث و ترشيده و حمايته من مثيرات الانحراف :

يجمع مختلف المهتمين بالشأن الإعلامي والممارسة الإعلامية بوجه عام في المجتمعات الحديثة، أن وسائل الإعلام بمختلف أنواعها قد تعاظم دورها وازدادت أهميتها بشكل لافت وغير مسبوق، وأضحت لديها قدرة خارقة على تحريك الرأي العام والسيطرة على توجهاته، فضلا عن دورها الفعال في تسويق مختلف القيم والمعايير والاتجاهات و الايدولوجيات لدى الجمهور، حتى أن بعضهم ذهب إلى حد القول أن أي تغيير اجتماعي أو ثقافي يشهده المجتمع ما هو إلا ثمرة من ثمار وسائل الإعلام. وضمن هذا السياق المعرفي نستطيع التأكيد على أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمطبوعة تلعب دورا بارزا في تكوين شخصية الفرد وتطبيعها الاجتماعي على أنماط سلوكية معينة، وذلك بما تعرضه من برامج هادفة ومعلومات متنوعة عن كافة المجالات التي تهتم الطفل/الحدث في مختلف مراحل حياته، فضلا عن ذلك وضمن الإطار نفسه لا يمكن أن نغفل حقيقة

هامة أن لوسائل الإعلام دورا محوريا أيضا في إشباع بعض الحاجات النفسية الضرورية لاستكمال تنمية الطفل خاصة الحاجات المتعلقة بالمعلومات، التسلية، الترفيه، الأخبار، والمعارف والثقافة العامة. كما تدعم أيضا الاتجاهات النفسية الإيجابية لديه، وتعزز فيه القيم والمعتقدات السائدة في المجتمع كما تقوم في ذات الوقت بتعديل هذه القيم والمعتقدات بشكل يتساقط والتغييرات القيمية والثقافية التي تطرأ على المجتمع من حين إلى آخر، فتكون وسائل الإعلام في هذا الإطار أفضل وسيلة لترسيخ هذا التغيير والتعديل، ومن ثم ضمان توافق الطفل/الحدث وتكيفه المستمر مع كل التغييرات التي تعرفها الأنساق القيمية والثقافية والمجتمعية⁴⁴. لذلك نعتقد اليوم أن وسائل الإعلام الجماهيرية أضحت أداة فاعلة من أدوات التنشئة والتربية والتثقيف فمن خلال برامجها وثرأ معلوماتها التي تنشرها بين الأطفال في كل زاوية من زوايا المجتمع تستطيع رسم أطر التفاعل الإنساني بين المنشئ المسؤول عن عملية التنشئة الاجتماعية والمنشأ الذي تستهدفه هذه العملية. ومثل هذه الأطر إنما تقوى العلاقة بين الطرفين إلى درجة أن المربي يندفع نحو التأثير في الطفل/الحدث تأثيرا عميقا و فاعلا، وأن الحدث يثق بالوسيلة الإعلامية ويؤمن برسالتها التربوية إذ يستوعبها ويلم بجميع جوانبها دلالاتها⁴⁵.

عموما يمكن توضيح الأساليب التي تستخدمها وسائل الإعلام في التنشئة الاجتماعية للطفل في النقاط

الثلاث التالية :

➤ التكرار : إذ تعتمد وسائل الإعلام إلى أحداث تأثير معين عن طريق تكرار أنواع معينة من العلاقات والشخصيات والأفكار والصور، ومثل هذا التكرار في القصص والكتب المصورة ومجلات الأطفال والإذاعة والتلفزيون والسينما يعرف الطفل/الحدث أشياء كثيرة عن الحياة بصفة عامة وعن مجتمعهم بصفة خاصة.

➤ الجاذبية: " ومما يضاعف من أثر التكرار تنوع الأساليب التي تشد الطفل إلى وسائل الإعلام المختلفة وأساليب الجذب هذه قد بلغت في وقتنا الراهن درجة كبيرة من القوة وسوف تتزايد مع تقدم التقنية وانتشار أدوات وأجهزة الإعلام الحديثة المتطورة وزيادة عدد من يتعرض لها من الأطفال.

➤ عرض النماذج : وهذا النماذج قد تكون نماذج شخصية، فيها سلوك معين لشخص شغل مكانة اجتماعية معينة، وقد تكون هذه النماذج مختلفة وأيا كان شكل هذه النماذج، فإنها إما أن تكون موجهة فيتضمن عرضها دعوة صريحة للاقتداء بها، أو أن تكون سلبية يتضمن عرضها دعوة صريحة بنقدها وعدم تقليدها⁴⁶.

ومن المفيد جدا في سياق تحليل أثر وسائل الإعلام في التنشئة الاجتماعية للطفل/الحدث أن يفرد الحديث على التلفزيون باعتباره أحد أهم قلاع الممارسة الإعلامية في المجتمع، والذي حظي على خلاف وسائل الإعلام الأخرى باهتمام خاص من طرف كل الدراسيين المهتمين بقضايا التربية والتنشئة الاجتماعية، على غرار جورج كومستك الذي يرى في هذا الصدد أن التلفزيون يلعب دورا رئيسا في تنشئة الطفل اجتماعيا، ويتنافس في ذلك مع الأسرة والمدرسة وكافة المؤسسات الاجتماعية الأخرى ويؤثر على قيم ومعتقدات وتوقعات الأطفال⁴⁷ يقول الباحث الاجتماعي مراد زعيمي في هذا الشأن ".....يلعب التلفزيون دورا هاما

في عملية التنشئة الاجتماعية والنمو الاجتماعي للفرد والجماعات، والوظيفة التربوية للتلفزيون تندرج تحت المفهوم الشامل للتنشئة الاجتماعية، إذ أننا نسجل احتواء برامج التلفزيون على مواد تخضع لقواعد العمل التربوي (من حيث خضوعها لمناهج وأهداف ومبادئ وأساليب التربية)، كما تحتوي على مواد أخرى كثيرة لا تخضع لذلك ولكنها تؤثر بشكل غير مباشر في قناعات وسلوك الأفراد ويحقق بذلك أهداف التنشئة الاجتماعية⁴⁸.

لذلك نعتقد بأن للتلفزيون وجود ثقافي واجتماعي ونفسي شديد التأثير في حياتنا من خلال ما يسوقه للأطفال من مواد إعلامية وبرامج يومية تقدم لهم صور عن السلوك والقيم والاتجاهات والمعتقدات التي تؤثر في ميولاتهم وتسيطر على مشاعرهم وأفكارهم وتدعم أو تعدل قناعاتهم⁴⁹. إن البرامج الخاصة بالأطفال تتميز بقدرتها الفائقة في التأثير على عملية تشكيل سلوك الطفل وتعديل نظرته إلى الحياة، ذلك أنها تتيح فرصة هامة للطفل/الحدث لاستيعاب نماذج جديدة للسلوك تكون بمثابة المؤيد والمدعم لأشكال السلوك السائد/أو المعدل والمغير له من خلال اقتراح أنماط جديدة من السلوك المقبول والمتوافق مع النسق القيمي الذي يعتمده المجتمع أو تثبت قيما ومبادئ وقناعات تتعارض بل تتنازع مع القيم الاجتماعية السائدة⁵⁰.

غير أن الحديث عن الدور المؤثر الذي يلعبه التلفزيون في عملية التنشئة الاجتماعية السليمة للطفل لا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يضمر عنا حقيقة أخرى تقع على طرف نقيض، من ذلك أن بعض البرامج التلفزيونية تغذي بعض السلوكات العدوانية والإنحرافية لدى الأطفال/الأحداث، وتدعينا لهذا الطرح أجريت عدة دراسات وتجارب كشفت نتائجها عن بعض الآثار السلبية التي يمكن أن تخلفها البرامج التلفزيونية على التنشئة الاجتماعية للطفل وضمن هذا الإطار خلص الباحث باندوز وزملاءه إلى أن الأطفال يمكن أن يتعلموا استجابات عدوانية خطيرة لم تكن ضمن ما يحتويه مخزونهم السلوكي لمجرد اطلاعهم على نموذج أو شخص عدواني في فيلم سينمائي⁵¹. ونتائج هذا الباحث تماثلت إلى حد كبير مع نتائج التجربة التي أجراها كل من "ألبرت" و "بارون" حيث اختار عددا من المفحوصين بطريقة عشوائية، وثم تقسيمهم إلى مجموعتين، فشاهدت إحداهما برنامجا تلفزيونيا يتضمن بعض مشاهد عنف، بينما شاهدت المجموعة الأخرى برنامجا منافسة رياضية تتطوي على قدر مماثل من الآثار والتشويق دون أن تتطوي على عنف، وبعد ذلك كان متاح للأطفال المجال للعب، فلاحظ الباحثان أن الأطفال الذين شاهدوا فيلم العنف تصرفوا بطريقة أكثر عدوانية من أولئك الذين شاهدوا برنامج المباريات الرياضية⁵²، لذلك وانطلاقا من نتائج هذه التجارب والدراسات وحتى نجنب أطفالنا المثيرات التي تغذي لديهم ثقافة العنف والعدوان، نعتقد بضرورة أن يعمل الآباء لتحفيز أبناءهم على مشاهدة البرامج التلفزيونية الهادفة التي ترسخ لديهم بعض المعاني والعبر والقيم السامية التي تهذب وترشد المبادئ والقناعات والرؤى التي تشكل ثقافة الطفل، وترسم أطر تفاعلاته مع

الآخرين خاصة أسرته، مدرسته، رفاقه، حتى لا نجد أنفسنا في مواجهة النتائج الهدامة للتلفزيون والتي وصفتها الباحثة "تاجرت" حين تقول "....إن التلفزيون لا يقرب بين أعضاء الأسرة اللهم إلا ماديا.... والأهم من ذلك أن القيم التقليدية التي تبثها الأسرة في الأطفال أخذه في الضمور والاضمحلال لتحل محلها قيم تلفزيونية مشتقة من أفلام رعاة البقر ومسلسلات العنف وتمثيلات الجنس والجريمة، وهي دائرة ضخمة من الآثار الوخيمة ذات الحلقات المتصلة، وقيم التلفزيون ركام هائل من الغث والسمين جنب إلى جنب بدون مغزى أو هوية ... يطمس الحقير العظيم ويضفي المعاني الهابط المتهاافت على المعنى القدسي الرفيع ... يصاب الطفل بانعدام الوزن، وتتعطّل لديه حاسة التميز، ويصير نهبا لكل ما هو غليظ وسمج". والباحث "ستيفن هوايت" الذي يقول أيضا " التلفزيون يروج لعملية التربية الموازية والضارة لعمليات التربية التي تقوم بها المدرسة والأسرة ودور العبادة"⁵³.

ولا شك أن هذه القراءة التحليلية لأثر وسائل الإعلام بوجه عام والتلفزيون بوجه خاص على التنشئة الاجتماعية للحدث تصل بنا إلى حقيقة كون وسائل الإعلام بمثابة سلاح ذو حدين إذا استغلت بشكل تربوي هادف كانت وسيلة نافعة من وسائل الثقافة والعلم والسمو بالخلق ونقل المعرفة والأفكار، ومن ثم تقديم أكبر النفع للجماعة بشكل عام للفرد بشكل خاص، أما إذا أسيء استخدامها ولم توجه توجيهها سليما بإشراف مركز وواع، فإنها تصبح سلاحا هداما يعرقل التنشئة الاجتماعية السوية ويساعد على الانحلال والانحراف⁵⁴.

الخاتمة

إن ما يجب الإلماع إليه في ختام هذه المساهمة العلمية المتواضعة، هو أن معدل انحراف الأحداث قد بلغت معدلات غير مسبوق، وأصبحت تهدد بشكل صريح أمن و سلامة المجتمع، فضلا عن النظام الاجتماعي و هو ما يؤشر لأزمة أخلاقية عميقة يعاني منها المجتمع منذ مدة ليست بقصيرة، و لعل أغلب الباحثين المشتغلين بالحقل التربوي يجمعون أن هذه الظاهرة لم تبلغ المستويات التي بلغت إلا لأن هناك اختلالات كبيرة و اضطرابات خطيرة في عملية التنشئة الاجتماعية، فهناك إجماع لدى العام و الخاص على أن مؤسسات التنشئة الاجتماعية أضحت لا تؤدي الوظيفة التربوية التي من المفروض أن تضطلع بمسؤوليتها على أكمل وجه، و وفق الأنساق القيمية التي يعتمدها المجتمع. بل الأكثر من ذلك أضحت متهمه بمسؤوليتها في إنتاج قوافل عديدة من الأحداث المنحرفين نتيجة للأخطاء التربوية الجسيمة التي ارتكبتها اتجاه هذه الفئة في عملية التنشئة الاجتماعية، على غرار ضعف الرقابة على الحدث، الإهمال و اللامبالاة، الدلال المبالغ فيه أو القسوة، غياب النصح و الإرشاد و المتابعة اليومية، ضعف آليات الضبط الاجتماعي،... إلخ. و كل ذلك من شأنه أن يسهم في ترهل شبكة العلاقات الاجتماعية و تمزقها، لهذا حاولت من خلال هذا المقال التذكير بكيفية مساهمة هذه المؤسسات أولا في التنشئة الاجتماعية السليمة للحدث، و ثانيا كيفية تحصين و حماية الحدث من كافة المثيرات التي قد تتضج لديه بعض الأفكار الانحرافية و الإجرامية، و التي قد تترجم في بعض السلوكات و الممارسات

الخطيرة. و كل ذلك يندرج في إطار مسؤولية النخب و الباحثين في الدفاع عن الرسالة الأخلاقية و التهذيبية في الوسط الاجتماعي.

المراجع:

- ¹- عامر مصباح: التنشئة الاجتماعية و السلوك الإنحرافي لتلاميذ المدرسة الثانوية. دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، الجزائر، 2003، ص 242-243.
- ²- المرجع السابق، ص 242.
- ³- ابن منظور: لسان العرب المحيط، معجم لغوي علمي. قدم له عبد الله العلابي، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، بدون سنة، ص 582.
- ⁴- علي بن هادية و آخرون: القاموس الجديد للطالب. معجم عربي مدرسي ألباني، تقديم محمود المسعدي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص 273.
- ⁵- زينب احمد عوين: قضاء الأحداث (دراسة مقارنة): الدار العلمية الدولية للنشر و التوزيع، و دار الثقافة للنشر و التوزيع، ط1، الأردن، 2003، ص 09.
- ⁶- مابسة أحمد النبال : التنشئة الاجتماعية . مبحث في علم النفس الاجتماعي. دار المعرفة الجامعية ، مصر 2002 ، ص 27 .
- ⁷- مصباح عامر : مرجع سابق، ص 32 .
- ⁸- Claud Dubar : La socialisation. Construction des identités sociales et professionnelles , deuxième édition , ARMAND.COLIN Paris , France , 1999 page 14 .
- ⁹- المصدر هو مختلف الأفراد و المؤسسات المنوطة إليهم عملية التنشئة الاجتماعية ، أما المتلقي فهو الطفل الذي يتلقى ، يتعلم مختلف أنماط التنشئة الاجتماعية .
- ¹⁰- ابن أبي زكريا يحي بن شرف النووي دمشقي : صحيح مسلم. طبعة جديدة محققة ومفهرسة ، المجلد الثامن، دار الفكر، لبنان، 2000، ص 177.
- ¹¹- صالح محمد علي أبوا جادوا : سيكولوجية التنشئة الاجتماعية. دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة ، ط 03، عمان، الأردن، 2002 ، ص 217.
- ¹²- سورة النحل الآية 72.
- ¹³- سورة البقرة الآية 223.
- ¹⁴- صالح محمد علي أبوا جادوا : مرجع سابق، ص 218.
- ¹⁵- محمد أحمد صالحة، مصطفى محمود حوامدة: التنشئة الاجتماعية للطفولة. ط 1 ، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، 1994، ص 87-88.
- ¹⁶- معمر داود : الانعكاسات النفسية والاجتماعية والمادية لانحراف الطفل. مقال منشور في مجلة التواصل، مجلة علمية محكمة، العدد 06 الموسوم بـ "مقاربات سوسيولوجية للمجتمع الجزائري". تصدر عن جامعة عنابة، الجزائر، 2000، ص 186.
- ¹⁷- كريستين نصار: الذكاء العاطفي أساسي الحوار بين الأهل والطفل. مقال منشور في مجلة العربي، العدد 565، مجلة شهرية ثقافية مصورة، الكويت، 2005، ص 166.
- ¹⁸- إحسان محمد الحسن: علم الاجتماع العائلة. دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط 1 ، 2005 ، ص 206.
- ¹⁹- صالح محمد علي أبوا جادوا: مرجع سابق ، ص 223.
- ²⁰- المرجع السابق، ص 222.
- ²¹- إحسان محمد الحسن: علم الاجتماع العائلة. دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط 1 ، 2005 ، ص 207.
- ²²- صالح محمد علي أبوا جادوا : مرجع سابق، ص 222.
- ²³- معن خليل العمر : التنشئة الاجتماعية. دار الشروق للنشر و التوزيع ، ط 01، عمان ، الأردن، 2004 ، ص 171.
- ²⁴- AZZOUZ Lakhdar : Origine Social et Sclolarité . Alijtimai, revue publiée par le département de sociologie, Université Mentouri, Constantine, Algérie, n° 04 , Avril 2003 P04.
- ²⁵ يجمع مختلف الباحثين المهتمين بقضايا التربية والتعليم على أن للمنهج المدرسي دور كبير في عملية التنشئة الاجتماعية، حيث يعتقدون بأنه يعزز الاتجاهات والقيم الاجتماعية لدى التلميذ / الطفل، وهذا ما يدفعنا إلى التشديد على ضرورة أن يلائم الكتاب المدرسي والمنهاج جميع مستويات التلاميذ في مختلف النواحي: النفسية، الاجتماعية والانفعالية والعقلية، كما يتوجب التعامل مع التلاميذ من منطلق وجود فروق فردية بينهم، ذلك أنهم ليسوا بمستوى واحد يمكن التعامل معهم على نحو نمطي، وإنما يتباينون ويتميزون فيما بينهم في مختلف المجالات، وفي هذا الإطار نلاحظ في المجتمعات المتقدمة محاولات جادة وحيثية لوضع منهج دراسي يتوافق من حيث المحتوى والمضمون مع مختلف المستويات، ويراعي مبدأ الفروق الفردية بين التلاميذ، كما تم التشديد أيضا على أن تشمل المناهج والكتب المدرسية على جميع النشاطات والقيم والاتجاهات التي توجه عملية التنشئة الاجتماعية على نحو سليم ووفق الأهداف التربوية المرسومة لها سلفا.
- ²⁶- سهير كامل أحمد : علم النفس الاجتماعي بين النظرية والتطبيق. مركز الإسكندرية للكتاب ، مصر ، 2001 ، ص 255.
- ²⁷- إحسان محمد الحسن : مرجع سابق ، ص 209.

- ²⁸ -Michel Born : Jeune déviants ou délinquant juveniles ? . édition pierre Mardaga, Bruxelles, 1983, P120.
- ²⁹ -RAM NARAYAN VYAS : Education and Human Society. Edition Ajenta publication , INDIA, 1971, P6.
- ³⁰ -بلقاسم محمد الغالي: دور المدرسة التربوية والتعليمية في عملية غرس القيم. مقال منشور في مجلة "الشؤون الاجتماعية". مجلة فصلية علمية محكمة، تصدر عن جمعية الاجتماعيين، والجامعة الأمريكية في الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، العدد 95، 2007، ص 144.
- ³¹ -فهمي توفيق مقبل : العمل الاجتماعي ودوره العلاجي داخل المؤسسات الإصلاحية في المجتمع العربي . مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1994 ص 58
- ³² - عفيف عبد الفتاح طيارة : روح الصلاة في الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ، ط15ن 1983 ص 28-29.
- ³³ - سورة المؤمنون الآيتين : 01 – 02.
- ³⁴ - عفيف عبد الفتاح طيارة : مرجع سابق، ص 23-31.
- ³⁵ - المرجع السابق، ص 176.
- ³⁶ - سورة لقمان الآية 13.
- ³⁷ - حميدة نبيل : الأسرة ، دورها وأساليب تنشئتها للطفل في ظل المتغيرات الاجتماعية والثقافية للمجتمع. مقال منشور في مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، مجلة علمية محكمة، تصدر عن جامعة 20 أوت 1955 بسكيكدة، الجزائر، العدد 01. 2007 ص 124.
- ³⁸ - علي خليل مصطفى أبو العينين : فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم. مكتب إبراهيم حلبي، المدينة المنورة، السعودية ط3، 1988، ص233.
- ³⁹ -عبد الله ناصح علوان : تربية الأولاد في الإسلام. دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ج2، 1989، ص ص 359-360.
- ⁴⁰ - المرجع السابق، ص 360.
- ⁴¹ - المرجع السابق، ص 365
- ⁴² - عباس محمود عوض، رشاد صالح ضهوري : مرجع سابق، ص 75.
- ⁴³ - محمد سلامة غباري : الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر 1998، ص172.
- ⁴⁴ -محمد شفيق : الإنسان والمجتمع. المكتب المجتمعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1997، ص 38.
- ⁴⁵ - إحسان محمد الحسن : مرجع سابق، ص 211.
- ⁴⁶ - صالح محمد علي أبو جادو : مرجع سابق، ص ص 234 – 235.
- ⁴⁷ -المرجع السابق، ص 235.
- ⁴⁸ - مراد زعيمي : مرجع سابق، ص 175.
- ⁴⁹ -شبل بدران : أسس التربية. دار المعرفة الجامعية، ط5، الإسكندرية، مصر، 2005، ص 91.
- ⁵⁰ - مراد زعيمي : مرجع سابق ص 176.
- ⁵¹ - روبرت مكلفين، ريتشارد غروسي : مدخل إلى علم النفس الاجتماعي. ترجمة ياسمين حداد، موفق الحمداني، فارس حلمي، دار وائل للطباعة والنشر ط1، عمان، الأردن، 2002، ص 372
- ⁵² - المرجع السابق، ص 376 – 377.
- ⁵³ - مراد زعيمي : مرجع سابق، ص ص 176 – 177.
- ⁵⁴ - محمد شفيق : مرجع سابق، ص 39.